

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رؤية الموت في شعر مالك بن الربيب

"قراءة في قصيدته اليائية"

د. موسى علي نجادي

الإيميل: musa_najada@hotmail.com

أستاذ مساعد في كلية العلوم الإسلامية/ فلسطين

المخلص

لاشك أن هاجس الموت أقلق الشاعر منذ القدم، وقد تعددت نظرة الشعراء كل حسب ظروفه والعوامل النفسية المحيطة به، وقصيدة مالك بن الربيب اليائية، إحدى القصائد التي نقلت لنا رؤية صاحبها للموت، ولعل هذا ما دفع الباحثين إلى الاهتمام بها، فالقصيدة تعج بالمشاعر الإنسانية المتضاربة بين الخوف والرجاء، والموت والحياة.

فمالك بدأ حياته قاطعا للطريق، ثم يتوب ويلتحق بالجيوش الفاتحة في خرسان آملا أن يكفر عن ماضيه، وهناك يدركه الموت، فتنتقذه المشاعر الإنسانية بين ألم الموت وألم الغربة، فيلجأ إلى استحضار الماضي علّه يخفف من ألمه، لكن الحاضر كان أكثر قسوة، لذا نجده دائم الهروب إلى الماضي. خوفا من المستقبل، ويحاول طمأنة نفسه في كثير من الأحيان بالحديث عن بيعه الضلالة بالهدى، ويقدم لنا صورة حية لتأنيب الضمير، في عدم استماعه لمن نصحه بعدم الخروج في تلك الرحلة.

وساعد تردد الصوت ما بين انخفاض وارتفاع، في التعبير عن نغمة حزينة، رفعت القصيدة إلى مصاف القصائد الإنسانية ذات الدفقات الشعورية المؤثرة، الأمر الذي بوأها مكانة أدبية وإنسانية مميزة.

الكلمات المفتاحية: الموت، القصيدة اليائية، شاعر.

Visioning death in Malik bin Al-Rayeb's poetry

Reading in his poem "Alyaeya"

Summary

There is no doubt that the obsession of death has worried the poet since ancient times, and the poets' view has varied according to his circumstances and the psychological factors surrounding him, and Malik ibn al-Rayb's "Alyaeya poem", one of the poems that conveyed to us its owner's vision of death, and perhaps this is what prompted researchers to pay attention to it. The poem is full of conflicting human feelings between fear and hope, death and life.

Malik began his life as a robber, then he repents and joins the decadent armies in Khurasan, hoping to repent for his past, but death catches him, so human feelings thrust him between the pain of death and the pain of estrangement, so he resorted to evoking the past in order to relieve his pain, but the present was more cruel, so we find him preferring Escape from it.

The attempt to escape from reality to the past suggests to us Malik's fear of the future that awaits him after death, so we find him often trying to reassure himself by talking about his misguided sale of guidance, and he presents us with a vivid picture of remorse, for not listening to those who advised him not to go out on that trip . The frequency of the sound, between low and high, helped express a sad tone, which raised the poem to the ranks of human poems with emotional waves that affect it, which gave it a distinctive literary and humanitarian position.

Keywords: death, the automatic poem, poet.

المقدمة

الموت ظاهرة رافقت الإنسان منذ بدء الخليقة، واختلفت نظراته إليها تبعا لعوامل عديدة، وعبر عن تلك النظرة بأساليب شتى، خرج فيها من دائرة الواقع إلى دائرة الخيال، إدراكا منه بحتمية الموت.

واحتل الموت مساحة واسعة في الشعر العربي قديمة وحديثة، مثل موقف هؤلاء الشعراء إزاء المصير المحتوم، فراحوا يعرضون إبداعاتهم ومشاعرهم تجاه الموت بنزعة ذاتية حزينة، باحثين في الوقت ذاته عن الخلود.

ومالك بن الريب أحد هؤلاء الشعراء الذين نظروا إلى الموت نظرة مختلفة عما سبقه من الشعراء، ميزها ذلك التناقض النفسي الذي كان يعتل في صدره؛ فقد عاش صعلوكا قاطع طريق، في ظل إيمانه بحرمة ذلك دينيا، لذا حاول أن يكفر عن ذلك بخروجه للجهاد، ففضى عليه ألم الغربة ومرارتها، وسنحاول الكشف عن هذه الجوانب وغيرها في هذه الدراسة.

مشكلة الدراسة

قضية الموت، قضية شغلت مالك بن الريب، واستحوذت على تفكيره، فكيف تشكلت رؤية الموت لديه؟ وكيف حاول أن يخلد ذكره بعد الموت؟ وكيف صور مشاعر الفراق عن الأهل والأحبة؟، وكيف عبر عن مشاعره في اللحظات الأخيرة من حياته؟.

هذه الأسئلة وغيرها ستحاول الدراسة الإجابة عليها من خلال استحضار رؤية مالك للموت في أشعاره، خاصة قصيدته البانية.

أهداف الدراسة

تهدف هذه الدراسة إلى توضيح رؤية الموت في شعر مالك بن الريب من خلال دراسة قصيدته اليبانية التي نظمها في أيامه الأخيرة بعد أن شعر بدنو أجله في بلاد الغربة، وتبيان تلك المشاعر التي هزت نفسية مالك، وألمته بعد أن أدركه الموت بعيدا عن أهله وأحبته.

أهمية الدراسة

تكمن أهمية الدراسة في موضوع الموت الذي أخذ مناخ مختلفة في الشعر العربي، واختلطت رؤيته بمشاعر كل شاعر ووجدانه، فكانت الأشعار المعبرة عن ذلك موضوعا خصبا للإبداع، ومجالا حيا للخيال.

فلا بد إذن من مثل هذه الدراسة لإثراء المكتبة العربية، وإمداد القارئ العربي بنماذج مختلفة ترشده في محاوره التراث العربي واستنطاقه.

منهج الدراسة

ستحاول الدراسة الكشف عن رؤية مالك بن الربيع للموت من خلال قصيدته اليبائية، التي تعد من عيون شعر رثاء النفس في التراث العربي، لذا اعتمدت الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي فيما يختص بوصف ظاهرة الموت كما يراها الشاعر، وكما وصفها من سبقه من الشعراء، فضلا عن المنهج النفسي الذي يركز على إبراز المشاعر التي سيطرت على وجدان الشاعر في تصويره لوحشة الموت وألم الغربة.

واعتمدت الدراسة على ديوان الشاعر مصدرا أساسيا للقصيدة موضوع الدراسة، فضلا عن بعض الدراسات التي تناولت نواح متعددة من حياة الشاعر، كما هو موضح في قائمة المراجع

رؤية الموت في الشعر الجاهلي

إن مشكل الموت قديم قدم الحضارات والشعوب، وقد استطاعت الديانات القديمة أن تحمل للإنسان رسالة مفادها إمكانية انتصار الحياة على الموت، فالصراع ضد الموت كان الموضوع الأهم في كثير من الخطابات الفلسفية والفنية القديمة(1).

وكان الشاعر يمتلك حساً تراجيدياً، بأن الموت نهاية لا بد منها، ولعله يجد في ذلك الإحساس عزاءً في حياة ثانية بعد الموت، وبالتالي كان يحمل إحساساً بهشاشة هذه الحياة، وأن مصيرها إلى زوال وفناء، ولم يكن الشاعر الجاهلي يصدر عن فلسفة تمسه، أو تمس أقرب الناس إليه، فالشعر غالباً كان يقوم على الإحساس المادي لا على التأمل الفكري المجرد(2).

يجسد ذلك وقوف الشاعر الجاهلي على الطلل، إذ يمثل ذلك وقوفاً على الزمن المنصرم، فكل ما يتجسد أمام العين ليس إلا بقايا ديار عفا رسمها، وأفقرت بعد أن كانت أهله، وليس أدل على ذلك من قول طرفة بن العبد البكري(3).

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفي
ومضى الشاعر الجاهلي يتأمل حقيقة الحياة والموت، فالحياة قصيرة الأيام، نهايتها موت محتوم :

أرى العيش كنزاً ناقصاً كل ليلة
وما تنقص الأيام والدهر ينفد

ويقوده التأمل في الحياة إلى تشبيهها بالثوب المعار، الذي مهما تنعمت فيه، ومهما تلذذت بلبسه، وزهوت به، فلا بد يوماً أن يسترده صاحبه، وكذلك الحياة فنعيمها قصير زائل، لأن الموت نهايتها، يقول الشمر دل:

ولقد علمت بأن كل مؤخر
يوماً سبيل الأولين سيبتع

ولقد علمت لو أن علماً نافعا
أن كل حي ذاهب فمودع

وقول الشاعر بحتمية الموت يثير قلقه، ويفسد عليه التمتع بنعيم الحياة ويعكر عليه صفوها، فكيف له أن يسعد ويستمتع وهو يخشى الموت أن يصرعه في أية لحظة، دون سابق إنذار، وهذا الإيمان انعكس على نظرته للحياة، فهذا النعيم وتلك الأموال والقصور، يفسد جمالها الموت، وستتحول من قصور نابضة بالحياة إلى قصور خاوية على عروشها بفعل الموت، موحشة لا أنيس فيها،

¹ ينظر حنان الجمل، الموت في الشعر العباسي، رسالة ماجستير، جامعة النجاح، إشراف. أ.د. إبراهيم الخواجا، 2003، ص19

² ينظر مصطفى الشوري، شعر الرثاء في العصر الجاهلي، الشركة المصرية العالمية، القاهرة، 1995، ص106

³ طرفة بن العبد، ديوان طرفة بن العبد، شرح مهدي محمد ناصر الدين، ط3، 2002، ص26

يقول عبدة بن الطيب :

ولقد علمت بأن قصري حفرة غرباء يحملني إليها شرجع

وحتمية الموت حقيقة أرقت أكثر من شاعر، فطرفة الذي كان يبحث عن الخلود يجد أنه مقيد بحبال الموت، ولا خلاص له من ذلك، سوى الاستسلام والانتظار، يقول:

لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى لكالطول المرخي وثناياه باليد

وتتزايد درجة الإيمان بحتمية الموت إلى حد الاعتقاد أنه سيصطادك ولو تحصنت عنه في بروج مشيدة، أو حتى لو تنسى لك الصعود إلى السماء، فلا حامي منه، ولا مانع له، يجسد ذلك زهير بن أبي سلمى بقوله:

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ولو رام أسباب السماء بسلم

وما دام الموت قدرا مقدورا، لا يمنع منه مانع، ولا يحجبه حاجب، فلا تميمة، ولا تعويذة، ولا مال ولا جاه، ولا قصور ولا قوة، تستطيع الوقوف أمامه، فلماذا لا يبادر الإنسان بالتلذذ والتنعم؟، ولماذا لا يطوف في البلاد، ما دام الموت يطلبه في كل الأحوال؟

ألم تعلمي ألا يراخي منيتي قعودي ولا يدني الوفاة رحيلي

والموت لا يفرق بين إنسان وآخر، بل لا بد أن يعم الجميع، سيدا كان أم مسودا، غنيا كان أم فقيرا، كما يرى طرفة بن العبد:

أرى الموت لا يراعى على ذي قرابة وإن كان في الدنيا عزيزا بمقعد

وربما نجد في شمولية الموت هذه عزاء للنفس- لاسيما الإنسان الفقير- حيث تزول الفوارق المادية، ولعل هذا يخفف من وطأة الموت على الإنسان، لذا نجد طرفة بن العبد الذي تحامته العشيرة ونبذته - لعدم رضاها عن تصرفاته- نجده يتأمل المقابر ليخفف من ألمه النفسي، إذ لا فرق بين غني أو فقير بل كلهم سواسية أمام الموت، يقول :

ترى جثوتين من تراب عليهما صفائح صم من صفيح منضد

ولعل هذا الشعور الذي يسيطر على الإنسان، من حتمية الموت وعدم تفريقه بين الناس، قاد إلى التفكير فيما حل في الأمم السابقة، كنوع من التعويض النفسي عن شعوره بالخوف من الموت الذي لا طاقة له به، وكأنه في ذلك يواسي نفسه، يقول:

فكيف يرجى المرء دهرًا مخلدًا وأعماله عما قليل تحاسبه

ألم تر لقمان بن عاد تتابعت عليه النسور ثم غابت كواكبه

وفي ظل حقيقة الموت، وعجز الشاعر عن مواجهته، واستسلامه له، جنح بعض الشعراء نحو التمتع وتحقيق اللذة قبل أن يدركه الموت، وكأنه في سباق لإشباع لذاته، وبذلك كون لنفسه فلسفة في حب الحياة ومواجهة الموت، تقوم على تحقيق ما يستطيع من لذائذ الدنيا ومتعها، قبل أن يأتيه يوم لا يستطيع ذلك، يقول طرفة:

وإن كنت لا تستطيع دفع منيتي فدعني أبادرها بما ملكت يدي

ولا تقتصر اللذة التي يبحث عنها الشاعر الجاهلي على اللذة الحسية فحسب، بل إنه غالبًا ما كان يبحث عن لذة معنوية تخذ ذكره بعد الموت، لذة تجعل ذكره في عقبه وتكسبهم المهابة، وتلك اللذة تتمثل في الصفات المعنوية التي أعلاها المجتمع الجاهلي كالكرم والشجاعة وحماية الجار... وغير ذلك، يقول عروة بن الورد:

ذريني ونفسي أم حسان إنني بها قبل لا أملك البيع مشتري

أحاديث تبقى والفتى غير خالد إذا هو أمسى هامة تحت صير

ويقودنا تقلب الشاعر الجاهلي في البحث عن الملذات الحسية والمعنوية، إلى القول: بأن ذلك نابع من عدم إيمانه المطلق بالحياة بعد الموت، وقنوطه أمامه، ومن نظرتة للواقع المحسوس، أمام ذلك المستقبل المجهول، يقول طرفة:

كريم يروي نفسه في حياته ستعلم إن متنا غدا أينا الصدى

وبحث الشاعر الجاهلي عن الخلود المعنوي، دفعه إلى تفضيل الموت على الذل أو المهانة، فيا مرحبا بالموت إن كانت الحياة الذليلة هي البديل له، يقول الشاعر:

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء

إنما الميت من يعيش ذليلاً سيئاً باله قليل الرجاء

فموت النفس هو الموت الأصعب، وإن كان الجسد حيا ، موت النفس فيه شعور بالقسوة والمرارة والإذلال، لذلك هو أصعب من موت الجسد، خاصة أنه في مجتمع يعلى قيم العزة والكرامة، فرغم كره النفس للموت إلا أنها أشد كرها للذل، ومن هنا انطلقت الفكرة عند بعض الشعراء الذين رحبوا بالموت وتمنوه، خاصة إذا بلغوا من الكبر عتيا، ووصلت بهم الحياة إلى أرذل العمر، يقول زهير:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعيش ثمانين حولا لا أب لك يسأم

وهكذا فقد انطلقت رؤية الشاعر الجاهلي للموت من حتميته ، فهو حقيقة لا بد منها، لذا كان التفكير فيه يشعره بالغصة في نفسه، فالموت محيط بالجميع لا ينجو منه أحد، لذا نجد ردة فعله تجاه هذه الرؤية تنبثق من طبيعة الحياة البدوية التي تعتمد على الواقع وليس التأمل العقلي والفلسفي، ولهذا لا نجده يتجه إلى التفكير فما بعد الموت من حياة أخرى، رغم أن هذه الفكرة لم تكن غريبة عليه، فلا نعدم من يؤمن بها، وهم من تأثروا بالكتب السماوية التي تؤمن بالبعث بعد الحياة كاليهودية والنصرانية، بل إن بعضهم كان يعتقدونها، فالموت عند الشاعر الجاهلي نهاية لا عودة بعدها، ولهذا وجدنا مشاعر القلق تسيطر على بعضهم، ووجدنا بعضهم يفر من مرارة هذه الفكرة إلى الانغماس في اللذات والشهوات عله ينسى تلك الفكرة التي أزعجته.

رؤية الموت في الشعر الإسلامي

عندما جاء الإسلام بدعوته السمحاء، أثار القلوب ، وهدى النفوس، وغَيَّر كثيراً من المفاهيم السائدة في أذهان الناس، وشكل بذلك نصراً ساحقاً لإنقاذ الإنسان من مصيره المجهول، فقد صور القرآن الموت بصورة محسوسة، كنزح الروح، والقبر، والبعث، والنشور، والحساب، والجنة والنار، فأصبح الإنسان يحيا لهدف، ويعمل لتحقيقه، يقول علي بن أبي طالب(4): (الوافر)

ولو أنا إذا مُتْنَا تُرْكْنَا لكان الموتُ راحةً كُلِّ حَيٍّ

ولكنَّا إذا مُتْنَا بُعْتْنَا ونُسألُ بعد ذا عن كلِّ شيءٍ

⁴ علي بن أبي طالب، ديوانه، دار الفكر العربي، بيروت، 1992، ص220

لقد تغير مفهوم الموت عند المسلمين، وأصبح يعني خلاص الروح والبدن من أدران الحياة، فحرص عليه الكثير منهم، لأن بعده الحياة الحقيقية بالنسبة إليهم، لذا فقد تعجب بعض الشعراء من الجزع أمام الموت وعدم التجمل بالصبر، فهذا أبو ذؤيب الهذلي، يفقد بنييه، فيعجب من نفسه أن غلب عليها الجزع والحزن، يقول(5):
(الكامل)

أمن المنون وريبها تتوجع والدهر ليس بمعتب من يجزع

ومع تقدم الزمن، وتباعده عن عصر النبوة، واتساع رقعة الدولة الإسلامية، تظل قضية الموت تطرح نفسها في الشعر العربي، وتلح على الشعراء أكثر من غيرهم، خاصة إذا خامرهم هذا الإحساس وهم في غربة عن أوطانهم وأهليهم، فجاءت بعض القصائد تعبر عن اغتراب نفسي يدفع بصاحبه إلى الحزن، وأحياناً إلى الملل من الحياة، كما نجده في قصيدة ثابت قطنه التي يقول فيها(6):
(البسيط)

يا هند إنني أظن العيش قد نفدا ولا أرى الأمر إلا مدبراً نكدا

إنني رهينة يوم لست سابقة إلا يكن يومنا هذا فقد أفدا

بايعت ربي بيعاً إن رضيت به جاورث قتلى كراماً جاوروا أهدا

وبما أن الموت نتيجة حتمية للإنسان، فإن الشاعر يبدو زاهداً في الحياة، راضياً بالقليل منها، يقول في طلب الرزق(7):
(البسيط)

لقد علمتُ وما الإسراف من طبعي أن الذي هو رزقي سوف يأتيني

أسعى له فيعنيني تطلبه ولو قعدت أتاني لا يُعنيني

لا خير في طمع يدني إلى طبع وغفة من قوام العيش تكفيني

ورغم أن الإسلام قد حبيب من مفهوم الموت إلى النفوس، فقد ظهر إحساس بالعجز تجاه هذا الحدث الجلل، ولم يكن محبباً لنفس الشاعر الأموي.

⁵ السكري، شرح أشعار الهذليين، تح احمد فراج، مكتبة دار العروبة، القاهرة، 1965، 4/1

⁶ ثابت قطنه، ديوانه، 39

⁷ السابق، 65، وتنسب الأبيات لعروة بن أذينة، ينظر الأغاني، 242/18

رؤية الموت في شعر مالك بن الربيع

لا شك أن الشعر في خراسان نقل لنا صورة حية عن تجارب الموت المختلفة، ذلك أن أغلب الشعراء كانوا في مواجهة دائمة مع الموت، لذلك تضاربت مشاعرهم في تلك اللحظات، وبذلك فقد برز لديهم نوع خاص من الرثاء، ذو طابع مميز، هو رثاء النفس.

ولعل قصيدة مالك بن الربيع اليبانية، التي رثى نفسه بها وهو في طريقة من خراسان، من أكثر الأمثلة وضوحاً في هذا المجال، فهي إحدى قصائد الشعر العربي التي تندفق فيها المشاعر الإنسانية التي توحى بالتنشيط بالحياة وترفض الموت، وهي إحدى إفراسات الغربية في حياة العربي المهاجر إلى بلاد خراسان، تلك الرحلة التي سلكها الشاعر على ما فيها من المخاطر، وما صاحبها من صعوبة التأقلم مع البيئة الجديدة.

وحين يشعر المرء بالمرض، أو يخامرُه إحساس بالموت، يشتد عليه ألم الغربة، وهذا " من أشد أعراض التمزق النفسي، التي تتعرض له الشخصية العربية المحاطة دائماً بالالتفاف الأسري، والترابط الودي بين أفرادها"⁽⁸⁾.

أما الموت في الغربة، فلعله من أفسى المشاعر التي يتعرض لها الفرد، فالإحساس بالوحدة في مواجهة الموت، وأن قبره بعيداً عن الأهل والوطن، مشاعر تبعث الأسى النفسي، وتجعل الموت أشد وطأة على النفس. وعندما نقف عند بكائية مالك، نجد أنفسنا أمام سيل من الحزن الذي لا ينضب، حيث تتلون اللحظات الأخيرة في عينيه، ليصور لنا خلجات نفسه التي تودع الدنيا، فيبدأ القصيدة بالتمني، ويكثر من ذلك في أبيات القصيدة، علّه يخفف من وطأة حاضره، يقول⁽⁹⁾:

(الطويل)

| | |
|-----------------------------------|---------------------------------|
| ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة | جنبب الغضا أزجي القلاص النواجيا |
| فليت الغضا لم يقطع الركب عرّضه | وليت الغضا ماشي الركاب لياليا |
| لقد كان في أهل الغضا لو دنا الغضا | مزارٌ ولكن الغضا ليس دانيا |
| فيا زيد علني بمن يسكن الغضا | وإن لم يكن يا زيدُ إلا أمانيا |

⁸ فاطمة سويدي، الاغتراب في الشعر الأموي، 210

⁹ مالك بن الربيع، ديوانه، ص88، والبيت الرابع في جمهرة أشعار العرب للقرشي تح محمد علي البجاوي، 607/2

لقد أستطاع الشاعر أن يمزج بين حاضره وماضيه: حاضره بكل ما فيه من ألم ومرارة؛ وماضيه بكل ما فيه من جمال وذكريات. وأمام هذه الأحاسيس، تندفع الأمنيات إلى نفسه، عليها تساعد في نسيان الواقع "وإن لم يكن يا زيد إلا أمانيا".

ونلمس في مطلع القصيدة نوعاً من التحبب والتقرب، لعله يجد في ذلك نوعاً من التضامن والمواساة، فيقدم ما يؤلمه ويضنيه بأسلوب الاستفهام الاستنكاري " هل أبيتن ليلة؟"، ليوحي بقوة تشبثه بتلك الأمنية التي يصعب تحقيقها؛ أن يسوق نوقه وسط الصحراء التي خبرها وألفها، وبذلك يقدم لنا لوحة يختلط فيها اللون بالحركة والصوت، وما تلك إلا صورة الحياة المشرقة في الصحراء، المفعمة بالأمل، المقاومة للموت. فالشاعر يسوق إبله بنشاط بين نباتات الصحراء، ولا يخفى عليك أصوات الإبل في هذه الحالة، مما يضيف على الصورة نوعاً من الحالة الشعورية التي تنتاب الشاعر، فتعبر عن مشاعر صادقة توحى بتلهف الشاعر وتشبثه بالحياة، وهو باستحضاره لتلك الذكريات، يحاول درء العجز الملازم له ساعة احتضاره.

أما تكراره لبعض أسماء النباتات الصحراوية (الغضا)، فلعل ذلك يعبر عن شعورٍ حادٍ بالغبية⁽¹⁰⁾، يوحي به افتقاده ذلك النبات من جهة، وتطلعه إلى لقاء الأهل والوطن من جهة أخرى "وليت الغضا ماشى الركاب لياليا".

وهكذا نجد أن أمانيه تُعاضد بعضها بعضاً، لتكون أسرة عزاء له في غربته، وبعد هذه الأمانى، نجد لديه لحظة ارتداد نفسي قوية، تقطع كل أمل، وتهدم كل أمنية، إذ يفصح عن حقيقة حاول تجنبها، ويصرح ببون المسافة الجغرافية بين موقعه وموطنه، بين جسده المحتضر وهوى قلبه " ولكن الغضا ليس دانيا".

ويستمر الشاعر في مخاطبة "زيد"، الذي طلب منه أن يعمله بالأمانى، ولعل زيدا ممن كان يرافقه في ساعاته الأخيرة، يقول⁽¹¹⁾:

| | |
|---------------------------------|----------------------------------|
| ألم ترني بعث الضلالة بالهدى | وأصبحت في جيش ابن عفان غازيا |
| وأصبحت في أرض الأعادي بعدها | أراني عن أرض الأعادي قاصيا |
| دعاني الهوى من أهل أودٍ وصحبتني | بذي الطَّبَسَيْنِ فالتفتُ ورائيا |
| أجبت الهوى لما دعاني بزفرةٍ | تقنعت منها أن ألام رداثيا |

¹⁰ ينظر ناهد شعراوي، الاغتراب والحنين في شعر مالك بن الربيع، 17

¹¹ مالك بن الربيع، ديوانه، 89

على خصوصية الحديث، إلا أنه يدل على العموم، ويحمل في طياته صورة لنفسية مغترب، أصيب بالإحباط واليأس، وشعر بهوانه على الأيام فحاول الخروج من تلك الحالة بالاستفهام " ألم ترني بعت الضلالة بالهدى؟". والبيع آخر مراحل الزهد في الشيء، فقد استبدل بالفتك والصعلكة الجهاد في سبيل الله غير أن هذا الحدث الجلل يفرض نفسه على الشاعر، فيجعله يشعر بالوحدة والوحشة، مما دفعه للتذكير بتوبته، ليخفف من وطأة ذلك الحدث.

وخراسان في نظر الشاعر – هي أرض الأعادي، ذلك أنها الأرض التي لم يستطعها، فهي الأرض التي كانت سبباً في غربته، وهي التي لاقى حتفه فيها، فكيف لا تكون أرض الأعادي؟

وأما قوله: " دعاني الهوى، وأجبت الهوى"، فيحمل دلالة الشوق واللهفة؛ الشوق لأرض الوطن، واللهفة للقاء الأهل، وأمام هذه الدعوة الخاصة، التي يوجهها الهوى، يتوقف الشاعر، ويتجاوز به إحساسان: إحساس بهوى "أهل أود"، وهم أهل الجزيرة العربية، وإحساس بهوى صحبته ورفقته في "ذي الطبيين بخراسان"، فهم صحبة الغربية، وعلاقة الغربية ربما تكون أقوى من غيرها.

أما الالتفات إلى الورا، فقد كان أحد المعالم البارزة في لغة المغتربين، يتناولون به على بعد المسافة المكانية التي تحول بينهم وبين وطنهم⁽¹²⁾، لذا فإن تعبير الشاعر "التفتُّ ورائياً" يحمل إيحاءً بقسوة الحاضر على نفسه، وطول شوقه لوطنه، لذلك عبّر عن ضيقة الشديداً "بزفرة" كي ينفس من كربه، ويخفي توتره وضعفه، ولا يبدو عاجزاً، ورغم ذلك فقد استطاع أن يُحمّل أبياته مشاعر المعاناة التي يئنُّ تحتها،

واستطاع أن يعبر عن مشاعر الندم الشديد على تلك الرحلة المشؤومة ليُعلن أنه لن يعود لمثل تلك الرحلة -التي سامته الضعف - إن نجا من هذه، فالفقر بين الأهل غنى، يقول⁽¹³⁾:

(الطويل)

| | |
|--------------------------------|------------------------------------|
| أقول وقد حالت قرى الكرد بيننا | جزى الله عمراً خيراً ما كان جازياً |
| إن الله يرجعني من الغزو لا أرى | وإن قلّ مالي طالباً ما ورائياً |
| تقول ابنتي لما رأته طول رحلتي | سفارك هذا تاركى لا أباليا |
| لعمرى لئن غالت خراسان هامتي | لقد كنت عن بابي خراسان نائياً |
| فإن أنج من بابي خراسان لا أعذ | إلهيا وإن منيتموني الأمانيا |

¹² ينظر فاطمة السويدي، الاغتراب في الشعر الأموي، 216

¹³ مالك بن الربيع، ديوانه، 89

إن غربة الشاعر، جعلت نغمة الحزن والأسى هي المسيطرة على صوت الشاعر المحتر، وتوحي برهافة حسبه، مما حمله على استحضر صوت ابنته المغتربة لرحيله، فها هو وقد كفتته الغربية، يتذكر حالها بلوعة، وقد جرعها من الكأس نفسه، ليهيئ بذلك للمتلقي أن الزمن تارات.

أما خراسان، تلك البلاد المشؤومة بالنسبة للشاعر، فما هي إلا مصيدة لاغتيال المكافحين " لعمرى لئن غالت خراسان هامتي"، وما كانت بالنسبة إليه إلا خدعة وقع فيها، لذا نجد أن البيت يحمل معاني الندم الشديد على رحلته تلك، ومعاني الكره والبغض لخراسان، وهذا ما نستشفه من تكرارها بعد القسم.

وينزع به الاغتراب إلى تدفق الحنين إلى الوطن والأهل، وكما يقول أبو الفرج الأصفهاني: "كنا نسمع أهل العلم يقولون: فقد الأحبة في الأوطان غربة، فكيف إذا اجتمعت الغربية وفقد الأحبة"⁽¹⁴⁾، فالشاعر في تلك اللحظات الحرجة، يستعرض ذكرياته، وكأنها شريط مصور أمامه، ويعبر عن ذلك بمرارة يحملها لنا تعجبه، ويندم على التضحية بكل الأجزاء، لقاء رحلته تلك، يقول⁽¹⁵⁾:
(الطويل)

| | |
|---|------------------------------|
| بنّي بأعلى الرقمتين وماليا | لله درّي يوم أتراك طائعاً |
| يخبّرني أنني هالك من ورائيا | ودرّ الأطباء السانحات عشية |
| علي شفيق ناصح لو نهانيا | ودرّ كبيرى اللذين كلاهما |
| بأمري ألا يقصروا من وناقيا | ودرّ الرجال الشاهدين تفتكي |
| ودرّ لجاجاتي ودرّ انتهائيا | ودرّ الهوى من حيث يدعو صاحبي |
| بنثوبي وقد أيقنت ألا تلاقيا ⁽¹⁶⁾ | ودرّ صبيّ اللذين تعلقا |

وكما تلاحظ، فإن صيغة التعجب "لله دري" هي المسيطرة على الأبيات، ولعل تكرارها بهذا الشكل ينبع من تأنيب الضمير له على رحلته تلك، ومن هول المفاجعة التي ألمت به في ديار الغربية، لذا فقد ابتداء بالتعجب من نفسه، على خروجه طوعاً لا كرهاً، وفي ذلك تعنيف للنفس، ولعل ذكره لأشياء محددة دون غيرها، يعود لمدى قرب تلك الأشياء من نفس الشاعر، ومما يزيد من ندمه، إعراضه عن الأطباء لما سنحت له، رغم معرفته أن ذلك مما يُتطيرُ منه، وتلك هي عادة جاهلية، لم يستطع الشاعر أن يتخلص منها رغم أن الإسلام ينهي عن ذلك، لكن هي الثقافة التي تجري في عروقه، يصعب التخلص منها.

¹⁴ أبو الفرج الأصفهاني، أدب الغرباء، عناية صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت، 1972، ص 11

¹⁵ مالك بن الريب، السابق، 90

¹⁶ البيت في القرشي، جمهرة أشعار العربي، 609/2، وغير موجود في الديوان.

واستعراض الشاعر لكل المحبين إليه، من والديه وأبنائه، وصحابته الواقفين معه في محنته، صورة تتميز بنزعة إنسانية تخترق القلوب، فأولاده تعلقوا به كي يثوّه عن عزمه، ووالداه يرجوانه ألا يتركهم، كلها صور تزاحمت في مخيلته، فبقيت ملازمة له، حتى في لحظات الرمق الأخير، لذا ساد الأبيات إيقاع عاطفي حزين، نتج عن حالة التأنيب التي يعانيتها الشاعر، وتمثّل في تكراره لعبارة التعجب "الله دري"، إضافة لألفاظه المنتقاة، التي توحى بالحزن وهول الفاجعة، يقول⁽¹⁷⁾:
(الطويل)

تذكرت من يبكي عليّ فلم أجدُ سوى السيفِ والرمح الرُّدينيّ باكيا
وأشقر محبوكاً يجرُّ عنانهُ إلى الماء لم يترك له الموت ساقيا

إنها المفاجئة والذهول أمام ذلك الحدث الذي لم يكن يتوقعه، تلك هي المعاني التي تحملها ألفاظه "تذكرت، لم أجد"، توحى بالوحدة والاضطراب، وهكذا يعود الشاعر من ذكرياته إلى واقعة المؤلم، يرثي لحاله، ويبكي نفسه في غربته ووحده، فلا صديق ولا أنيس سوى عدته وعتاده، التي صاحبته في غربته ولم تفارقه، عاشت معه لحظات الشدة والمرارة، بل لعله كان يجد بين حديها أسباب الحياة.

أما حصانه، فقد تجسدت فيه كل معاني القوة، إلا أن الغربة أضعفته وأذلته "يجرُّ عنانه إلى الماء"، ولا إخال هذه الصورة إلا معادلاً موضوعياً لمالك نفسه، فهو يتفتّع بقناع حصانه، بعد أن أذله المرض وقهره البعد؛ وكأنه بذلك يعبر عن رفضه الشديد لذلك الواقع المؤلم، فقد تخلى عنه كلُّ شيء، وبقي وحيداً يصارع الموت، حتى من بقي بصحبته من الرجال، هم ينتظرون موته، ليلتحقوا بالجيش الذي غادر، لهذا فلا نجده يطيل النظر في هذا الواقع المؤلم، بل يهرب منه، ويتخلص من التفكير فيه، باللجوء إلى الماضي السعيد، حيث الأحبة، يقول⁽¹⁸⁾: (الطويل)

ولكن بأطرافِ السُّمينةِ نسوةٌ عزيز عليهنّ العشيّة ما بيا

فالنساء يشعرون بالفقد أكثر من الرجال، وقد اختار وقت العشيّة لأنه وقت اجتماع الأحبة، والتأم شملهم، وحدد المكان الذي ينتمي إليه، علّه بذلك يحقق بعضاً مما افتقده، لذلك نجده يقف عند تلك المرأة التي أنهكها الزمن، وأضناها غيابه عنها،

¹⁷ مالك بن الربيع، ديوانه، 90

¹⁸ مالك بن الربيع، ديوانه ، 91

ولعله يقصد بتلك المرأة أمه، يقول⁽¹⁹⁾: (الطويل)

تركثُ بها شمطاء قد دقَّ عظمها تعدُّ إذا ما غبتُ عنها الليالي

لقد ذكر سابقاً أنها حاولت منعه من السفر، فكيف يكون وقع الخبر عليها إذا سمعت بموته؟، ومالك هنا يقدم لنا صورة دقيقة لتأنيب ضميره له، ذلك أنه يرى نفسه سبباً في الألم الذي لحق بأحبته، وسيلحق بهم كذلك إذا سمعوا خبره، وبذلك يحقق نمواً ذاتياً للقصيدة، بتتابع المعاني بمنطقية، لتشف عن أحاسيسه ومشاعره.

وبعد أن تحقق ما كان يخشاه أحبته، يعود إلى حاضره، فيصف ما آل إليه حاله، يقول⁽²⁰⁾: (الطويل)

صريعٌ على أيدي الرجال بقفرةٍ يسؤون قبري حيثُ حُمَّ قضائيا
ولمات رءات عند مرو منيئي وخلَّ بها جسمي وحانت وفاتي
أقول لأصحابي أرفعوني فإنني يقرُّ بعيني إن سهيلٌ بدالياً

إنه الانكسار الشديد الذي صار إليه الشاعر، فهؤلاء الرجال لم تعد تربطه بهم علاقة حميمة، تماماً كتلك الصحراء التي سيدفن بها، فلا يألفها ولا تألفه، ومع إصراره على ذكر ذلك المكان "مرو" إلا أنه يوحى بكراهيته له، يقودنا إلى ذلك إصراره على بيان مدى السقم والوهن الذي ينتاب جسده، يسري فيه رويداً رويداً، من خلال لفظه "ترءات" التي توحى بالتدرج في حصول المنية، والفعل "خل" الذي يشير إلى الاستمرارية والتتابع، وتبرز ذات الشاعر من خلال سيطرة مشاعره على هذا الموقف، فهو يخوض تجربة نادرة، تعلق فيها نبرات صوته وتنخفض حسب حالته التي يمر فيها، وينعكس ذلك على مشاعره وأحاسيسه، فرغم صيغة الأمر "أرفعوني" إلا أنها تشير إلى مدى الضعف الذي يعانيه، نستدل على ذلك من لفظه "أصحابي" فبعد أن كانت علاقته بهم مبهمة في البيت السابق "الرجال"، بدأت تنحو نحو الخصوصية واللجوء إليهم، والاستعانة بهم.

وسهيل نجم لا يرى إلا في بلاد العرب، ألا ترى أن رؤيته في بلاد مرو غريب كغربة الشاعر نفسه؟ لقد اتخذ الشاعر رمزاً للوطن، ليخفف من معاناته واضطرابه.

¹⁹ القرشي، جمهرة أشعار العرب، بتح محمد علي الجاوي، دار نهضة مصر، القاهرة، 609/2

²⁰ مالك بن الربيع، السابق، 91

ويتخيل نفسه ساعة الموت، فيناشد صاحبيه أن يحقق له بعض الرغبات والأمنيات الأخيرة، ولعل في ذلك تشبهاً بالحياة، يقول⁽²¹⁾:

ويا صاحبي رحلي دنا الموتُ فانزلا
أقيما عليّ اليوم أو بعض ليلةٍ
وقوما إذا ما استل روعي فهَيِّئا
وخطا بأطراف الأسنة مضجعي
ولا تحسداني ببارك الله فيكما
برايبة إنني مقبلاً لياليا
ولا تُعجلاني قد تبين ما بييا
لي السِّدر والأكفان ثم ابكياليا
وردا على عيني فُضِّل رداييا
من الأرض ذات العَرَض أن توسعا لييا

إنها تأملات الشاعر في مأساته، يطلق صرخات النداء المصحوب بالرجاء لصاحبيه، ألا يتعجلا بالمغادرة بعد دفنه، وأن يدفناه كما يدفن الأبطال "وخطا بأطراف الأسنة مضجعي"، وأن يتعهدها بالغسل والتكفين وما يُكرم به المرء، ثم يطلب منهما أن يوسعا له في قبره، بعد أن ضاق به وجه الأرض، ولا أحسبه يقصد من ذلك إلا السعة المعنوية، التي تكون مبشرة لصاحبها بالسعادة الأبدية، فهي مشاعر إنسانية تننابه، فعسى أن تقوده هذه السعة إلى السعة الأبدية.

وأمام الموت المحقق، يكرُّ الشاعر إلى الماضي ويستحضره، ويتنسم عبق الذكريات الجميلة التي بدت تتلاشى أمام ناظره، كما تتلاشى الظلال ساعة الغروب، فلا يملك سوى الحسرة والتوجع والانكسار، وتتعالى نغمة الحزن والشعور بالفقد، يقول⁽²²⁾:

خذاني فجراني بثوبي إليكما
وقد كنت عطافاً إذا الخيل أدبرت
وقد كنت صباراً على القرن في الوعي
فطوراً تراني في ظلال ونعمة
ويوماً تراني في رحاً مستديرة
فقد كنت قبل اليوم صعباً قياديا
سريعاً لدى الهيجا إلى من دعانيا
وعن شتمى ابن العم والجار وانيا
وطوراً تراني والعتاق ركايياً
تخرق أطراف الرِّماح ثيابيا

²¹ مالك بن الربيع، ديوانه ، 91
²² السابق ، 92

إنها صروح من أوهام المجد تتقوض وتنهار بسرعة، كما انهارت قواه، فقد كان عطافاً ومحموداً وصباراً... وهي صيغ تدل على القوة والعزة، إلا أنها تلاشت الآن، فأصبح في ضعف وذلة، يتشبث بالتقرب لأصحابيه تشبثه بالحياة، فهما يمثلان الحياة لديه، التي تبدو له أطواراً مختلفة، وكأنني به يرثي الوجود الإنساني، ويتفجع عليه، لا على حياته الفردية فحسب، فهو يدل على هشاشة ذلك الوجود مهما جل وعظم، وبذلك يرتقي بتجربة الموت الفردية، إلى أفق إنساني أعم وأرحب، فيكون الحزن أعم وأشمل.

وبعد أن يتأكد من قبول أصحابه لرجائه، وعزمهم على تنفيذ ما طلبه منهم، يطلب منهم أن يعلنوا موته، ليسمع الجميع بذلك، بقول⁽²³⁾:

(الطويل)

وقوما على بئر السّمينية أسمعا بها الغرّ والبيض الحسان الروانبا
بأنكما قد خلفتماني بفقرة تهيل عليّ الريح فيها السوافبا
ولا تنسيا عهدي خليلي بعدما تقطّع أوصالي وتبلى عظامبا
ولن يعدم الولدان بثاً يصيبهم ولن يعدم الميراث مّي المواببا

لقد كان هذا الطلب بالإعلان للجميع، ردّ فعلٍ على ذلك الموت البطيء الصامت، فهو يطلب منهم أن يرفعا صوتهما ليسمعا كلّ من يسكن دياره بتلك الفجيعة المدوّرة، وأية فجيعة أقسى من أن يفنى الإنسان في بلاد الغربية؟ إنه الخبر الذي هدّه "بأنكما خلفتماني بفقرة"، وتلك هي بؤرة أجزائه، ومصدر آلامه، خاصة أن المكان "فقرة" موحشة لا أنيس فيها، سوى الريح التي تسفي عليه التراب لتخفي معالمه، فيزداد قبره غربة، كما كان صاحبه غريباً، ولعل هذا ما جعله يزيد من تقربه إلى أصحابه "خليلي" في محاولة لاستدرار عطفهم، ليعلنوا موته كما يُعلن موت الكرام، علّه ينال في مماته ما لم يستطع نواله في حياته، فيخلد ذكره كفارس بطل.

ولهول الموقف، يستمر بالنواح مبيناً شدة الفاجعة، يقول⁽²⁴⁾:

(الطويل)

يقولون لا تبعد وهم يدفنونني وأيّن مكان البعد إلا مكانبا؟
غداة غدٍ يالهدف نفسي على غدٍ إذا أدلجوا عني وأصبحت ثاوبا
وأصبح مالي من طريفٍ وتالد لغيري وكان المال بالأمس مالبا

²³ مالك بن الربيع، ديوانه، 93

²⁴ السابق، 93

إنه تلُف ناجم عن الضيق الذي ينتابه، والأسى الذي يلم به كلما أزداد تيقناً من اقتراب النهاية، ويعرض لنا صورة طالما أرقتة؟ تلك هي صورة أصحابه الذين يوارونه الثرى، وقد لفهم الحزن والأسى، فيكونه بكاءً مرأً، وينادون عليه لهول الصدمة، فيجيب باستفهام إنكاري: هذا مكان البعد الحقيقي. ولعله بذلك ينقل لنا بعضاً من صور العادات والتقاليد التي تحدث في مجتمعه إن مات فيه رجل عزيز.

ويُظهر تشبته بالحياة، وخوفه من المستقبل الذي يعني له الموت، نلمس ذلك من إصراره على تكرار الغد ثلاث مرات في شطر واحد، إضافة إلى صيغة النداء "يا لهف نفسي" التي تحمل معني المأساة التي تتعمق وتزداد إذا أقبل الغد، وتفرق عنه الأصحاب، وتركوه وحيداً، لا أمل له بالرجوع مثلهم.

ويرتدُّ إلى المكان في رحلة نفسية أخرى، تحمل من معاني الأسف والندم، بقدر ما تحمل من معاني الشوق والاعتداد بالمكان، والتلذذ بذكره يقول⁽²⁵⁾:

(الطويل)

| | |
|--------------------------------|----------------------------------|
| فيما ليت شعري هل تغيّرت الرحا | رحا المثل: أو أمسّت بفلج كما هيا |
| إذا الحيّ حلوها جميعاً وأنزلوا | بها بقرراً حُمّ العيون سواجيا |
| رعين وقد كاد الظلام يجنُّها | يسُفن الخزامى نورها والأفاحيا |
| وهل أترك العيس العوالي بالضحى | بركبانها تغلّو المتان الفيافيا |
| إذا عُصَبُ الركبان بين غنيزة | وبؤلان عاجوا المُبقيات النواجيا |

إن إصراره على تحديد المكان بعينه، يوحى بشوقه إليه وتلذذه بذكرياته فيه، ذلك المكان الذي قضى فيه ريعان شبابه، أما الزمان فهو فصل الربيع، حيث تأخذ الأرض زخرفها وتنزين بالنور والأفاحي، وتعمر بالحياة، فينشط الشباب في ربوعها، يجوبون وديانها وسهولها على ظهور عيسهم المراقيل، موفرين بذلك الأمن والأمان إلى أهل الحي، إضافة إلى العيش الرغيد التي تتمتع به الحسان الغيد من نساء الحي، وهكذا يرتمي الشاعر في أحضان بيئته العربية، ويبتعد عن خراسان وغربتها، فإن قصر جسده من الوصول إلى موطنه، فقد وصلها بتفكيره وخياله.

²⁵ مالك بن الريب، ديوانه 94

ومن اللافت للنظر، أن الحديث عن الموت يقترن كثيراً بالحديث عن المرأة في سياق واحد، فإضافة إلى استعارة البقر الوحشي للتعبير عن المرأة في دلّها ودلالها، نجد صورة المرأة الباكية عليه، تعود وتُلحّ على مخيلته، يقول⁽²⁶⁾:

(الطويل)

فيا ليت شعري هل بكت أم مالكٍ كما كنت لو عالوا نعيّك باكيا
إذا مُتُّ فاعتادي القبور وسلمِي على الرّمس أسقيتِ السحاب الغوديا
على جدثٍ قد جرّت الرياحُ فوقه تُراباً كسَخِّ المرنباني هابيا⁽²⁷⁾

لعل الشعور بالفناء، يوقظ في النفس الرغبة في المقاومة، والتشبث بالحياة فيكون الحديث عن المرأة في سياق الموت، حديثاً عن الرغبة في الاستمرار في الحياة وتعبيراً عن الحنين لذلك، فهو يطلب من أمّه أن تبكيه بكاءً شديداً، كما كان سيبيكيها لو سبق الموت إليها، ويبدو أن الشاعر متشبث ببعض التقاليد والعادات الجاهلية، التي ما تزال تلحّ عليه، فيدعو للنواح، وزيارة القبر، والدعاء بالسقيا، وهذا ما كانت تفعله نساء القبيلة في الجاهلية إذا مات عظيم من عظمائها.

وتلقي الغربة بظلالها على الشاعر، حتى بعد موته، فيرى أن قبره مهماً تكاد الرياح تخفي معالمه، لكثرة ما تُسفي عليه من الرمال، وفي ذلك إحياء بغربة ذلك القبر وإهماله، فلا أحد يعرف صاحبه ليهتم به، ولعل ذلك سبب دعوته لزيارة قبره، وأن تستمر الزيارة دون انقطاع، كي يبقى قبره بارزاً، وفي ذلك محاولة نفسية، لإبراز صيته، إذا إن الكريم لا يُنسى ذكره، ولا يخبو صيته، ويبقى قبره معروفاً للرائح والغادي.

وتبقى نغمة الحزن مسيطرة على نفس الشاعر، وتبقى الحسرة ملازمة له، فيبعث برسالة تفوح منها رائحة الحزن، إلى أهله وذويه، يقول⁽²⁸⁾:

(الطويل)

فيا صاحباً إمّا عرضت فيلغن بني مازن والريب ألا تلاقيا
وبلغ أخي عمران بردي ومئزري وبلغ عجوزي اليوم ألا تدانيا
وسلم على شيخي مني كليهما وبلغ كُثيراً وابن عمي وخاليا
وعرّ قلوصي في الركاب فإنها ستفلقُ أكباداً وتُبكي بواكيا

تلك هي رسالته لأهله وذويه، رسالة توديع تذوب لها القلوب، رغم مباشرتها وتلقائيتها، فقد فرض الموقف ذلك على الشاعر. وإصراراً منه على إعلان خبر موته، يدعو إلى ترك ناقته عارية دون رحلٍ أو شداد وتلك رسالة يعرفها العربي، أن صاحب هذه الناقة لقي حتفه.

²⁶ السابق ، 94

²⁷ المرنباني: كساء من خز، ويقال: مطرف من وبر الإبل

²⁸ مالك بن الريب، ديوانه، 95، والبيتان الثاني والثالث في جمهرة أشعار العرب، 611/2

وما يلبث أن يرتد إلى واقعه، وإحساسه بالألم، فيعقد مقارنة بين حاله وهو يموت وحيداً بعيداً عن الأهل، وبين ما قد يحدث لو مات بينهم ووسطهم، يقول⁽²⁹⁾:

غريب بعيد الدار ثاوٍ بقفرةٍ
أقلِّبُ طرفي حول رحلي فلا أرى
وبالرمـل مئـانـسوة لو شـهدنـني
وما كان عهد الرمال عندي وأهله
فمنهن أمي وابنتاي وخالتي
يد الدهر معروفاً بأن لا تدانـيا
به من عيون المؤنسات مُراعـيا
بـكـيـن وفـدّـين الطيبـب المـداوـيا
نـمـيـماً ولا ودّعتُ بالرمـل قـالـيا
وباكيـة أخرى تهـيـج البواكـيا

وهكذا يختم القصيدة بتلك المشاهد النسائية الباكية، بعد أن ذكر غربته ووحده، وهو بذلك يحنُّ إلى الانتماء الاجتماعي الذي افتقده في غربته⁽³⁰⁾. وقد أصبح الآن في أشدِّ الحاجة لمثل ذلك الانتماء، فهو أكثر حاجة الآن إلى الحنان والشفقة، لذا نراه يقلِّب طرفه حوله باحثاً عن ذلك الحنان، فلا يجد سوى العجز الشديد الذي يعانيه، فهو لا يقوى على الحركة، وتلك هي رسالته إلى أهله، يعبر لهم فيها عن حبه الشديد لهم وتمسكه بهم.

وهكذا فقد حاول الشاعر التخفيف عن نفسه من هول مصيبة الموت في الغربة، بالارتداد إلى الماضي واستحضاره، فقد أرقت الغربة نفسه وكدرت صفو حياته، فبدت له هذه الحياة هشة ضعيفة، فانطوى على شوك العجز، ومرارة القنوط، فطفق يندب نفسه، ويتفجّع عليها.

لقد كان إحساس الشاعر بالغربة إحساساً صادقاً، فعبر عما يجيش في صدره، من معاناة، فجاء بخلاصة تجربته الذاتية بعيداً عن التكلف والتصنع، بل غلبت عليه الصراحة التي تعكس أزمة حقيقية كانت تعصف بالإنسان في ذلك العصر.

²⁹ السابق، 95

³⁰ ينظر ناهد شعراوي، الاغتراب والحنين في شعر مالك بن الربيع، 23

الخاتمة

نقلت لنا قصيدة مالك اليائية صورة حية عن رؤيته للموت، فقد أظهر إحساسا بالعجز تجاه الموت، زاد ذلك أن ألم به الموت غريبا. فكانت قصيدته سيلا من المشاعر والأحاسيس والانفعالات التي يعاضد بعضها بعضا، لتشكل لحظات ارتداد نفسي بين الحاضر والماضي والمستقبل، الأمر الذي يفسره كثرة ذكره للأماكن التي توحى بالفقد.

وكان الالتفات إلى الماضي وما فيه من ذكريات معلما بارزا في القصيدة، حاول به الشاعر أن يختصر المسافة المكانية التي تحول بينه وبين وطنه وأهله، فأوحى لنا ذلك بقسوة الحاضر على نفس الشاعر، وشدة ضيقه وتبرمه منه، وندمه الشديد على خروجه في تلك الرحلة، التي شكلت منعطفا هاما في حياته.

ومالك بن الريب- وإن كان مسلما- يعلي كثيرا من شأن بعض القيم الجاهلية التي نهى عنها الإسلام، فدعوته إلى النواح وزيارة قبره، بل وحفره بأطراف الأسنة، وتعرية قلوبه؛ كلها من عادات الجاهلية التي توحى للناس أن الفقيد صاحب مكانة مميزة في مجتمعه، وليس من سواد الناس وعامتها، وهي عادات اهتم مالك بإبرازها وأوصى أن يبلغ أهله بها.

ويقدم مالك في قصيدته صورة لتأنيب ضميره له، لما سببه من ألم لأهله؛ إذ لم يطاوعهم ولم يسمع لهم عندما أرادوا ثنيه عن الخروج، ولعل السبب في رفضه الاستماع لهم يكمن في محاولة توبته و تكفيره عما ارتكبه في حياة الصعلكة.

ومن الملاحظ في القصيدة أن نبرات الصوت أعطت للقصيدة تلك المسحة الجمالية، وقد شكلت إحدى أهم الأسباب التي خلقتها، فهي ترتفع وتنخفض حسب حالته التي يمر بها، وينعكس ذلك على مشاعره وأحاسيسه، كما نجده في بعض صيغ الأمر التي توحى بالضعف الشديد، وكذلك الحال في صيغ المبالغة التي كررها الشاعر في أبياته.

أما رفاق دربه، فقد مثل خطابهما بهما تشبته بالحياة، رغم إيمانه بهشاشتها، وبذلك ارتقى بتجربته الفردية إلى أفق إنساني أرحب وتجربة إنسانية جماعية.

وأخيرا، ومن خلال دراستنا لأشعار مالك، فقد تبين لنا أن مالك عاش حياة متناقضة متضاربة، فقد عاش حياة الصعلوك، والابن البار، والأب العطوف، والفارس الشجاع، والتائب النادم؛ فلا بد من دراسة مستفيضة لمالك ابن الريب، نتبين من خلالها نفسيته ومشاعره في محطات حياته المتناقضة.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1-الأصفهاني, أبو الفرج علي بن الحسين, الأغاني, تح. إبراهيم الأنباري (1970) , دار الشعب.
- 2- الأصفهاني, أبو الفرج علي بن الحسين (1972) , أدب الغرباء, عناية صلاح الدين المنجد, دار الكتاب الجديد, بيروت.
- 3- الجمل، حنان(2003) ، الموت في الشعر العباسي، رسالة ماجستير ، إشراف. أ.د. إبراهيم الخواجا، جامعة النجاح.
- 4- ابن الريب, مالك (1969) , ديوان مالك بن الريب, تح. نوري حمودي القيسي, مجلة معهد المخطوطات العربية.
- 5- السكري، أبو السعيد الحسن بن الحسين (1965) شرح أشعار الهذليين، تح. احمد فراج، مكتبة دار العروبة، القاهرة.
- 6- السويدي، فاطمة حميد (1997), الاغتراب في الشعر الأموي، مكتبة مدبولي، القاهرة.
- 7- الشعراوي, ناهد (2008) الاغتراب والحنين في شعر مالك بن الريب، دراسة فنية, مجلة الدراسات الشرقية, جامعة عين شمس.
- 8- الشوري، مصطفى عبد الشافي(1995) شعر الرثاء في العصر الجاهلي، دراسة فنية, الشركة المصرية العالمية، القاهرة.
- 9- ابن أبي طالب، علي (1992) ديوان علي بن أبي طالب، دار الفكر العربي، بيروت.
- 10- ابن العبد، طرفة (2002) ديوان طرفة بن العبد، شرح مهدي محمد ناصر الدين، ط3.
- 11- العنكي, ثابت قطنة (1968) شعر ثابت قطنة العنكي, تح. ماجد السامرائي, منشورات وزارة الثقافة الإعلامية العراقية, بغداد.
- 12- القرشي، أبو زيد محمد بن أبي الخطاب, جمهرة أشعار العرب، ،تح. محمد علي البجاوي، دار نهضة مصر، القاهرة.